(١)

أم المؤمنين خديجة - رضى الله عنها

تقدم فى المدخل لهذه المواجهة أن المستشرقين وأساتذتهم المبشرين اتخذوا من تعدد زوجات النبى ﷺ وسيلة لوصفه عليه السلام بأنه كان رجلاً شهوانياً لا همَّ له إلا إشباع غريزته الجنسية، والتهالك وراء الاستمتاع بالنساء، ولما كانت السيدة خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - أولى زوجاته، ولم يتزوج الرسول عليها ثانية ولا ثالثة وهى فى عصمته، بل حدث التعدد بعد وفاتها، لما كان الأمر كذلك فقد شعروا بأن اتهامهم إياه بالشهوانية غير مستساغ، فراحوا يبحثون عن ثغرة أخرى يضمونها إلى معرَّة «الشهوانية» المدعاة، وهى الطمع فى مالها وثروتها؛ لأنها كانت من أثرياء قريش.

والتهمتان باطلتان:

أما تهمة الشهوانية، فيكفى فى بطلانها فارق السن بين النبى - عليه السلام - وبين السيدة خديجة - رضى الله عنها - فقد كانت فى الأربعين من عمرها، وهو شاب مكتمل الحيوية فى الخامسة

والعشرين من عمره، فهو بمنزلة الابن لها، وهى بمنزلة الأم له، وتفاوت السن بهذه الدرجة الكبيرة ليس مطلباً للرجال فى النساء والعكس هو الصحيح، ثم إن السيدة خديجة - رضى الله عنها - مع كبر سنها هذا كانت ثيباً ولم تكن بكراً، بل كانت زوجاً لرجلين من قبله، هما عتيق بن عائذ المخزومى، وأبو هالة هند بن زرارة التميمى، وكلاهما من سادات العرب وأشرافها، فهل يكون الرجل الشهوانى جاهلاً بأسباب المتع إلى هذا الحد؟ وقد كان فى وسعه أن يتزوج من يشاء من فتيات قومه النضرات وهن فى بضاضة الشباب وسحره ومرحه، وخفة روحه.

إن السيدة خديجة - رضى الله عنها - حتى ولو كانت عانساً، وهى فى هذه السن لانقطعت عنها مطامح الرجال الذين يسعون وراء إشباع الغريزة الجنسية من مصادرها المحببة إلى النفوس، وكان أمام محمد ﷺ مئات الفتيات الغريرات اللاتى يتمنى أولياؤهن أن يكون محمد ﷺ صهراً لهم، لما كان له فيهم من حسن السيرة، وكرامة الأخلاق، وأدب النفس، وشرف الأرومة، وقد أهلته هذه الصفات لأن يحمل بينهم لقباً لم يحمله منهم أحد قبله، إنه «الصادق الأمين»، والذى أطلق عليه هذا اللقب النبيل هم قومه، فما أجمل هذا الوصف؟ وما أكرم ذلك الموصوف؟!

ويضاف إلى هاتين الحقيقتين: كبر السن، والثيوبة حقيقة ثالثة، من شأنها أن تصرف شاباً فى الخامسة والعشرين من عمره عن

الاقتران بـالسيدة خديجـة لو كانت الشهوة هى التى جـمعت بين محمد - عليه السلام - وبين خديجة - رضى الله عنها.

فخديجة بعد موت زوجيها الأولين لم تكن متفرغة لحياة زوجية ثالثة؛ لأنها كانت أمّا لاثنين من ثمرة زواجها السابق، فقد أنجبت من زوجهـا الأول عتيق بن عائذ المخـزومى بنتاً بلغت سن الزواج حين تمت خطبتـها إلى محمـد بن عبد الله، وأنجبت من زوجـها الثانى أبى هالة ولداً كان فى سن الطفولة فى ذلك الوقت.

والرجل الشـهوانى إنما يبـحث عن فـتاة غـريرة تتفـرغ له هى ويتفرغ هو لها، تلك هى مقومات اللهو عند طلاب الملذات وعبيد الشهوات.

فكيف يستقيم مع هذا أن يصف خـصوم الإسلام من المبشرين والمسـتشرقين والمـلحدين أن زواج مـحمـد ﷺ من خديجـة كان الدافع إليه هو شهوة الجسد؟ أمـا يستحى هؤلاء من مجرد خطور هذا على «بالهم»، فضلاً عن إعلانه، والتحمس له، والإصرار عليه؟

أإلى هذا الحد من الجهل والجهالة يحملهم حقدهم وبغضهم فيرون النور ظلاماً، والبياض سواداً؟!

إن أكذوبة الأكاذيب ترديد هذه التهمة، وهى تهمة يردها العقل والواقع والفطرة القويمة، قبل أن يردها النقل، إن الآفـات النفسية والأهواء المريضـة وكراهيـتـهم للحق هى وراء مـا يقولون، ومـا

أصدق ما قال الشاعر فى أمثالهم:

قد تُنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ
ويُنكر الفمُ طعْمَ الماء من سَقَمِ

لكن نزاهة محمد ﷺ ونبل سلوكه، وطهارة سيرته لن يضيرها هذا القول مهما احتشدوا له وحشدوا، والأمر كما قال الشاعر الحكيم:

هل يضر البحر أمسى زاخراً
أن رمى فيه غلام بحجر؟

الطمع فى المال:

أما تهمة الطمع فى مال خديجة - رضى الله عنها - فهى أوهى من بيت العنكبوت، لأن محمداً ﷺ عُرِفَ فى جميع مراحل حياته بالزهد فى الدنيا، منذ صباه، حتى لقى ربه، ومع هذا الزهد كان كساباً للمال للإنفاق على نفسه، حتى لا يكون عالة على من سواه.

وقد بدأ بالعمل، وهو صغير، بعد وفاة جده عبد المطلب، الذى أوصى عند موته ابنه أبا طالب أن يرعى ابن أخيه عبد الله - محمداً عليه السلام - وكان أبو طالب مُقلاً من المال، مع كثرة العيال، ولما شب محمد عن الطوق، اشتغل برعى الغنم ليساعد عمه على نفقة عياله، فكان يجلب من المال ما يدخل السرور على

عمه وأهل بيتـه، وكان إذا وضع الطعام لا يسرع إلى الجلوس مع أفراد أسرة عمه، كما كان أسرعهم رفعاً ليده عن الطعام، ولما رأى عمه أن بنيه يلتهمون الطعام ومحمداً يبطئ في تناوله أراد أن يعزل له طعامه حتى لا يغلبوه، فـرفض محمد هذه الفكرة، وهو صبى دون البلوغ، ولكن أخلاق النبوة ولدت معه يوم ولد، ونمت كلما نمى، وقويت فيه واشتد ظهورها كلما قوى هو واشتد ظهوره.

وبعد زواجـه بالسيدة خديجـة وهى أثرى أثرياء أهل مكة حتى قال كُتَّابُ السيرة: إن بضاعتها التى كانت تُحمل فى رحلتى الشتاء والصيف كـانت تعادل بضاعـة كل أهل مكة، وما كـان يُرد منها شئ، بل كانت تبـاع كلها، وتحقق لهـا أرباحاً عظيمة، وبخـاصة بعد زواج محمد المبارك منها، والعمل لها فى تجارتها، وعلى رغم هذا الثراء الواسع لزوجته فإن محمداً لم تُلْهِهِ ملذات الدنيا فيغدو فيـها ويروح، بل كان يقـضى الليالى ذوات العدد فى غـار حراء يتأمل فى ملكوت السـموات والأرض، خالياً إلى ربه، ومـا كان يحـمل معه مـن الطعام إلا الخـبز الجاف الصـالح للبـقاء دون أن يتعفن فإذا نفد طعامه عاد فـقضى وقتاً فى بيته مع زوجته وأولاده ثم رجع إلى غاره ليواصل التأمل وتزكية القلب والنفس، فلو كان زواجه من خديجـة طمعاً فى شهوة أو مـال لما فارق البيت لحظة، إلا أن يخرج للتنزه والاستـرواح إلى الطائف ذات الهواء العليل، أو الشام ذات المباهج والماء الجارى والحدائق الفيحاء؟!

لكنه لم يفعل من ذلك شيئاً، لأنه لم يخلق لملذات الدنيا، ولا ملذات الدنيا خُلقت له.

إن القدر الإلهى يُعِدُّه ليكون قائد الإنسانية جميعاً حتى تلقى ربها، بعد أن يُبين لها محمد ﷺ ما أنزله الله إليها، ثم تنقطع - برسالته - رسالات السماء إلى يوم الدين.

من الذى طلب الآخر؟!

ومما يدحض فرية خصوم الإسلام الإجابة على هذا السؤال: من الذى طلب الآخر؟!

أمحمد هو الذى خطب خديجة كما يخطب الذكور الإناث فى كل زمان ومكان؟ أم أن الذى خطب محمداً هو خديجة على خلاف المألوف فى دنيا الناس؟!

إن الرواية الأمينة والخبر الصادق الذى لم يُعْرف له مخالف أن السيدة خديجة - رضى الله عنها - هى التى خطبت محمداً ﷺ، لا أن محمداً هو الذى خطبها.

فقد عرفت خديجة محمداً صادقاً أميناً كما أطلق عليه قومه ثم لمست هذا الصدق وتلك الأمانة رؤية عين، ورؤيا قلب حين أوكلت إليه مهمة الاتجار فى مالها فرأت من الصدق عجباً، ومن الأمانة كنزاً، وتحرك قلبها نحو هذا المثل العالى فى روعة الأخلاق، ونبل السلوك، وفى لحظة ما دخلت عليها صديقتها

نفيسة ابنة منية، فرأتها فى ضيق وحـيرة، سرعان ما عرفت نفيسة أسبابهـما، فهرولت من ساعتـها إلى محمد، وحدثتـه فى شئون الزواج، وأفصحت له عما لمسته من السيدة الطاهرة خديجة، ولم يمانع محمد فى الزواج منها إن كان ذلك رغبة لها.

ثم اجتـمع قومهـا وقومه، وأعلنت الخـطبة، وتم الزواج على بركة من الله ورضوان.

ولم يكن ميل خـديجة إليه تلبيـة لغرائز جنسية، بل كـان حباً لتلك النفس الزكية، والقلب الطاهر، والسـيرة الحميدة دليل ذلك أن السيدة خديجـة بعد موت زوجها الثانى تقدم لهـا رجال أكفاء من سادات قريش يخطبونها الواحـد تلو الآخر، فما قبلت واحداً منهم، لا انتظاراً منها للتزوج من محـمد - عليه السلام - ولكن لأنها زهدت فى الحياة الزوجـية بعد فجيعتها فـيها مرتين، وآثرت التفرغ لرعاية ابنتها وولدها من عتيق وأبى هالة.

وفى هذا تبرئة بعد تبـرئة لمحمد من مغامز المبـشرين من أمثال مسكيم رودنسـون، وتبرئة للسيـدة خديجة من التهـالك وراء متع الجـسد، التى تمارس فـى الغرب الآن بكل وسـيلة من الوسـائل الخسيسة، ثم يتعقب بعض أبنائها سيرة الأطهار ليدنسوها.

بل هى حكمة الحكيم:

هؤلاء المبشرون والمستشرقـون لو كانوا طلاب حق لردعهم عما

قالوا ثمرة الزواج النبوى من خديجة - رضى الله عنها - ثم موقف الرسول منها بعد وفاتها - رضى الله عنها.

لقد كان هذا الزواج هو من حكمة الله الحكيم، الذى أعدَّ محمداً للقيام بمهام أعظم رسالة إلهية يبلغها رسول للناس جميعاً، كما أعد خديجة لتكون أول مؤمنة بتلك الرسالة، وأول ناصر لها من البشر، وأن يكون بيتها مهبطاً للوحى من السماء إلى الأرض حاملاً مشاعل النور الأبدى فى ربوع الكون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وأن تكون أمًا لولدين وأربع بنات من سلالة النبوة الطاهرة.

أول من علم بالسر:

كانت خديجة أول من علم بالسر الإلهى بعد محمد ﷺ بعد أن نزل عليه جبريل بقوله تعالى لأول مرة ينزل فيها جبريل بوحى جديد بعد رسالة عيسى عبد الله ورسوله:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

كان لنزول الوحى على النبى لأول مرة رهبة وشدة، ثم ما وجد عليه السلام من يُثَبِّتُه ويهدئ روعه فى تلك اللحظة القاسية إلا خديجة - رضى الله تعالى عنها - وكان مما قالت له: «الله

يرعـانا يا أبـا القـاسم، أبشـر يا ابن عم وأثبـتْ، فـوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتحمل الكل - أى تجبر الضعيف - وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

إنها - وذى الجلال والإكـرام - لأغلى وأعظم نصيحة تـسديها زوجة مؤمنة لزوجـها فى ساعة الشدة والـعسر، ولو لم يكن من ثمـــرات هذا الزواج إلا هذا الموقـف العظيم، لكـان أعظم زواج يشهده تاريخ الإنسانية كلها.

ثم وضعت ثروتها فى خـدمة الدعوة وكفاها شـرفاً وعلو رتبة عند الله أنها كـانت أول من آمن بالإسلام لا من النساء فـحسب، بل منهن ومن الرجـال، فـهى أسبق السـابقين إلى الإسـلام على الإطلاق.

وقـد أنجب الله لرسـوله كل أولاده - مـا عـدا إبراهيم - من خديجـة وهم: «ولدان: القاسم وعبـد الله، وأربع بنات: زينب، ورقية وأم كلثوم، وفاطمة - رضى الله عنهم وعنهن».

إن مسكيم «رودنسون» وأسلافه لو كانوا طلاب حق - بحق - لأكبروا هذا الزواج، ولعدوه من روائع الـوقائع الإنسانية بدلاً من هذا التـهـافت السخـيف، ولكن الحـقـد أعمى قلوبـهم واغتـال عقولهم، ومـا هم بضارين به من أحد إلا أنفسهم فـهم فى غيهم وطغيانهم يعمهون.

موقفه بعد وفاتها:

لكل عظيم دور فى هذه الحياة، فإذا أدَّى دوره عاد إلى ربه ولو تصور الناس أن الدنيا أحوج ما تكون إليه، وقد أدَّت السيدة خديجة - رضى الله عنها - دورها فى الحياة فى خدمة الدعوة طوال عشر سنوات من بدء الوحى وكانت نعم الوزير والنصير لصاحب الرسالة ﷺ، شهدت معه مولد الإسلام، واحتضنته معه وليداً، وغذته بحكمتها وصبرها حتى شب عن الطوق وترعرع، وقبل الهجرة بثلاث سنوات اكتمل دورها فى نصرة الدعوة، فدعاها الرفيق الأعلى ليجزيها أحسن ما عملت، دعاها إليه وماتزال أمام الدعوة عقبات كئود، ولكن وجود الله يغنى عن كل وجود بعد تأدية أصحاب الأدوار أدوارهم.

وفى السنة نفسها مات عم النبى أبو طالب، وقد كان سنداً قوياً لابن أخيه ضد قومه، وإن ظل على عقيدتهم حتى مات، وشعر النبى ﷺ بفراغ أرضى هائل بعد موتهما واشتد حزنه حتى سُمِّى ذلك العام عام الحزن، وقد ظل النبى - عليه السلام - مخلصاً وفياً لحظه الأول من أمهات المؤمنين، لا يسلو عنها لحظة، ولا يفكر فى الزواج بعدها من النساء، ورضى بقضاء الله وقدره مع مواصلة الجهاد فى سبيل الله والقيام بأعباء الرسالة وما أشقها، لكن عظماء الآخرة لا تخور قواهم، ولا تفتر عزائمهم مهما لقوا من صعاب، ولو طارت أرواحهم شعاعاً فى سبيل الحق.

فهل كان محمد ﷺ لو كان شهوانياً ما تزوج خديجة إلا من أجل جمالها ومالها؟! هل كان يحزن ذلك الحزن وقد ذهبت صاحبة المال والجمال؟! أم كان سيسرع فى التزوج من غيرها، ولأنساه اللهو ما كان بينه وبين خديجة؟! هلا سأل هؤلاء الحقدة أنفسهم هذا السؤال؟! إن عشاق المتعة لا يبالون بمن ذهب، وإنما يسرعون فى البحث عن بدائل أخرى يجدون فيها من المتعة واللهو ما فاتهم بفراق من فارقهم، وليس لديهم ذرة من الوفاء نحو نديم الأمس.

استمرار الوفاء:

وقد يندر لدى بعض عبيد الشهوة أن يشعروا بفراغ طارئ إذا فقدوا «خديناتهم» فتخيم عليهم موجة من الأسى، ولكن لا من أجل الوفاء، بل بكاء على حظوظهم الدنيئة، التى ولَّتْ، أما أن يذرفوا دمعة وفاء فهذا محال، وأما أن يستمر أساهم على من فارقهم فهذا محال آخر، فإن غانية واحدة تمحو من ذاكرتهم ما كان بالأمس القريب.

أما محمد العفيف النزيه، فقد ظل وفياً لخديجة طوال حياته بعدها، وفى عصمته عدد من الزوجات فى بعضهن ما ليس فى خديجة من الشباب والجمال وسحر الأنوثة، ولنسمع إلى أم المؤمنين السيدة عائشة ابنة الصديق أبى بكر - رضى الله عنهما - وهى تقول:

«ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان النبى يكثر ذكرها وربما يذبح الشاة ثم يبعثها فى صديقات خديجة، وربما قلت له: كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لى منها ولد».

وأكثر من ذكر خديجة يوماً فقالت السيدة عائشة: هل كانت إلا عجوزاً فى غابر الأزمان؟! وقد أبدلك الله خيراً منها؟ - يعنى أبدله الله عائشة وهى خيرٌ من خديجة - فغضب ﷺ من هذه الكلمة وقال لها:

«لا والله ما أبدلنى الله خيراً منها، لقد آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى حين كذَّبنى الناس، وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء»، قالت عائشة: «فلم أعد أذكر خديجة بسوء بعد هذا أبداً».

فهل هذه أخلاق عشاق وعبيد شهوة؟ أم أخلاق أوفياء مخلصين يعشقون المعانى النبيلة، والمثل العليا؟ ولا يقيمون وزناً لمتع الجسد وملذات الدنيا الزائلة، إن الحقد والحسد، والعلل النفسية القاتلة هى التى تحمل هؤلاء المبشرين والمستشرقين واليهود والملحدين على أن يروجوا هذه الشائعات ليشوهوا حقائق الإسلام والله متم نوره ولو كره الكافرون.

* * *